إمارة الأغالبة ودورها في توطيد العلاقة بين المغرب الأدنى (إفريقية) والمشرق الإسلامي (184-296هـ/800-909م)

The Role of Al-Aghalibah State in Establishing the Relationship between the nearest West (Afrikiyah) and the Islamic East

■ علي احمد كرير

أستاذ مساعد، كلية الآداب، جامعة صبراتة

ملخص البحث:

تبوأت الإمارة الأغلبية مكانة بارزة في تاريخ المغرب الإسلامي عامة، وتاريخ إفريقية خاصة نظرا للدور الذي اضطلعت به في تشكيل وصنع التاريخ بكافة فروعه واتجاهاته في المنطقة، فعلى الصعيد السياسي كانت ممثلة للخلافة العباسية في المغرب الإسلامي ومناط بها مقاومة القوى المناهضة لتلك الخلافة في المنطقة سواء الخلاف السياسي بين الطرفين كأمويي الأندلس، أو دولة الأدارسة العلوية في فاس، أو الخلاف المذهبي ممثلا في دولتي الخوارج الإباضية في المغرب الأوسط، والصفرية في إقليم السوس، أو المخالفين للمسلمين في العقيدة وأعني بهم الدولة البيزنطية ومسيحيي جنوب أوروبا. وقد أسهمت علاقات الأغالبة مع المشرق الإسلامي في تطور كافة مناحي الحياة في المنطقة سواء أكانت سياسية أم عسكرية أم اقتصادية أم اجتماعية أم ثقافية.

Abstract:

Al-Aghaliba State has a significant status in the history of Islamic Maghreb especially in the history of Afrikiyah, due to its role in making and shaping the history of the region. It represented the Al-Abbasia Kilaaphah in the Islamic Maghreb and resisted their political and ideological oppositions in the region. The relationships of Al-Aghalibah with the Islamic Eastern contributed to the development of all life aspects including political, military, economic and cultural.

المقدمة:

اهتمت الخلافة العباسية ببلاد إفريقية (المغرب الأدنى) خاصة بعد أن أرسوا دعائم دولتهم في المشرق، بقضائهم على الثورات والمشاكل الداخلية وتحصين حدودهم الإدارية مع الدولة البيزنطية، فكان اهتمامهم بهذه المنطقة لما تمثله من دور مهم في بلدان المغرب العربي الإسلامي بشكل عام طوال العصور الإسلامية، إضافة لمحاولة العباسيين تأمين ولاية مصر، التي كانت تمثل أهم ولايات الدولة العربية الإسلامية سياسيا واقتصاديا وعسكريا آنذاك؛ لذلك اقتضت الظروف في بلاد المغرب الإسلامي تأسيس إمارة فيه، تكون تبعيتها للخلافة وتحافظ على ما تبقى من أراضي المنطقة، فوقع الاختيار على أسرة ابن الأغلب لتكون الوريث الشرعي لهم وتؤسس إمارة وراثية مستقلة، وقد تبوأت مكانة بارزة في تاريخ المغرب الإسلامي عامة، وتاريخ إفريقية خاصة نظرا للدور الذي اضطلعت به في تشكيل وصنع التاريخ بكافة فروعه واتجاهاته، فعلى الصعيد السياسي كانت ممثلة للخلافة العباسية في المغرب الإسلامي وتقاوم القوى المناهضة لتلك الخلافة في المنطقة سواء الخلاف السياسي بين الطرفيين كأمويي الأندلس، ودولة الأدارسة العلوية في فاس، أو الخلاف المذهبي منها ممثلا في دولتي الخوارج الإباضية في المغرب الأوسط، والصفرية في إقليم السوس أو المخالفين للمسلمين في العقيدة، وأعني بهم الدولة البيزنطية ومسيحيي جنوب أوروبا.

وقد حققت الخلافة العباسية الهدف الذي سعت إليه باعتمادها هذه الإمارة، فحفظت لها معظم الأراضي في المنطقة التي تطرق إليها الاضطراب ودبت فيها الفوضى، وبرزت النزعات الانفصالية، وظلت طوال عهدها تضطلع بدور مهم في توطيد العلاقات بين الشرق الإسلامي وغربه، وقد أسهمت هذه العلاقات في تطور كافة مناحي الحياة في المنطقة سواء أكانت سياسية أم اقتصادية أم اجتماعية أم ثقافية.

تأسيس الإمارة الأغلبية:

شهدت بلاد المغرب الإسلامي خلال المرحلة الانتقالية بين سقوط الخلافة الأموية وتولي العباسيين الحكم فراغا سياسيا وفوضى واضطراباً رغم محاولات الخلفاء إرسال خيرة قادتهم، فيذكر الرقيق القيرواني عن أبي جعفر المنصور بأنه كان «عالما بالمغرب خائفا عليه، وكان لا يبعث إليه إلا أهل ثقته من ذوي الرأي الأصيل والخطر الجليل»[1].

وعلى الرغم من هذا الاهتمام الذي دفعهم إلى تولية نخبة من رجالات الدولة عليه

كأمراء بني المهلب، وهرثمة بن أعين، ومحمد بن مقاتل العكي، إلا أن الخطر بقي جاثما حتى أسند الخليفة هارون الرشيد هذه الولاية المهمة لإبراهيم بن الأغلب مؤسس الإمارة الأغلبية سنة 184 هـ فكفاه أمر المغرب، إذ اضطلع هو وخلفاؤه من الأمراء الأغالبة بهذه المسؤولية، فحققوا للخلافة معظم أهدافها في تلك المنطقة، فقد قامت هذه الأسرة بأعمال جليلة وخدمات قيمة جعلتها تتبوأ مكانة مرموقة بين دول المغرب في العصر الوسيط. يرجع أصل هذه الأسرة إلى الأغلب بن سالم التميمي، الذي قدم إفريقية كقائد ضمن جيش محمد بن الأشعث، الذي أرسلته الخلافة العباسية للقضاء على ثورات الخوارج الاباضية إبان سيطرتها على القيروان [2].

وقد اختلفت الروايات حول نسبهم، فهناك من يرى أن الأغلب من أهل مرو الرود، كان فيمن قدم مع المسودة (العاسيين) من خراسان فولاه موسى الهادي المغرب[3]، في حين يرى بعضهم الآخر أنه من أهل البصرة ولاه الرشيد المغرب[4]، ومهما يكن من أمر فأن الأغالبة أصبحوا هم الحكام الشرعيين لبلاد إفريقية، وإن كانوا في الواقع نوابا عن الخلافة العباسية .

أما مؤسس الإمارة فهو إبراهيم بن الأغلب التميمي الذي استطاع بفضل حنكته السياسية وذكائه، وكفاءته الوصول لحكم بلاد إفريقية بعدما شعر أن الخلافة العباسية لم تكن موفقة في اختيار محمد بن مقاتل العكي لحكمها، إذ أنه أخفق في تسييرها لما عرف عنه من سوء الخلق وفساد السيرة، إضافة لكثرة الثورات المضادة في عهده، مما دفع الخلافة إلى استبداله خاصة بعد التضحيات الكبيرة التي قدمها ابن الأغلب لهذه البلاد.

أما كيفية وصوله للحكم فقد اختلفت الروايات حولها، حيث يذكر اليعقوبي " وقدم إبراهيم بن الأغلب، فولاه أهل المغرب عليهم، فضبط عليهم، وبلغ الرشيد ذلك، فكتب إليه بعهده على إفريقية، وبعث إليه بالعهد مع يحيى بن موسى الكندي.... وكان أحد الجند الذين أخرجوا من مصر إلى إفريقية، وكان يتولى شرطة صاحب إفريقية "[5]، أما البلاذري الذي عاش في القرن الثالث الهجري فيتهم ابن الأغلب بسرقة أموال، بيت مال مصر، وأقبل يهدي هرثمة ويلاطفه وكان يومها حاكم إفريقية ، فصفح عنه وولاّه منطقة الزاب[6]، ثم أمره الرشيد بولاية إفريقية بعد محمد بن مقاتل[7]، أما ابن عذارى المراكشي فقال "إن الخليفة هارون الرشيد ولى إبراهيم بن الأغلب بلاد الزاب"[8].

وبالرغم من اختلاف الروايات حول وصوله لحكم إفريقية، فإن المؤكد أن الخلافة العباسية قامت بتنصيبه أميرا عليها مع تمتعه بقدر من الحكم الذاتي، ولم يكن الرشيد ليتخذ هذا الإجراء إلا لعدة اعتبارات وأسباب، أهمها اضطراب الأحوال في المنطقة مما يهدد بانفصالها عن الخلافة كما انفصلت الأندلس من قبل.

ذلك أن المغرب العربي الإسلامي لم يشهد الاستقرار منذ أواخر عهد الأمويين الذين أصبحت في عهدهم بؤرة للحركات المناوئة، وقد ورث العباسيون هذه الاضطرابات والفوضى التي عمت تلك البلاد، وزاد الأمر سوءا لجوء الكثير من المناوئين للخلافة العباسية إليه، وبث دعواتهم فيه، تلك الدعوات التي وجدت هوى في نفوس المغاربة الذين ضاقوا ذرعا بفساد الإدارة وانعدام الاستقرار في ربوعهم[9]، واستطاع الكثير منهم تأسيس دول وإمارات مستقلة معارضة لبني العباس.

لذلك أدرك الرشيد حاجة إفريقية لرجل ذي كفاءة إدارية وعسكرية تمكنه من التعامل مع هذه المشاكل والوقوف في وجه أي خطر تتعرض له الخلافة من ناحية المغرب مقابل تقديم بعض التنازلات ومنحه إمارة وراثية، ويبدو أن إدراك الخليفة لصعوبة الاحتفاظ بإفريقية في إطار خلافته عقب انفصال أغلب بلدان المغرب الإسلامي عنها، والتي كانت جميعها تتفق في عدائها السافر لبني العباس، كل ذلك شجع الرشيد على اتخاذ قرار بتولية إبراهيم بن الأغلب على إفريقية، وكان لهرثمة بن أعين الوالي السابق للبلاد دور مهم في الدفع بالرشيد لاتخاذ هذا القرار.

إن اختياره لهذه الولاية كان اختيارا صائبا أملته عليه الظروف، هذا الاختيار الذي تمحور في جوهره إلى تمتع ابن الأغلب بقدر من الاستقلال الذاتي وجعل الولاية وراثية في عقبه، ويحمل في طياته منحه قدرا من الصلاحيات والمرونة ليواجه المشاكل التي تنشب بالسرعة المطلوبة قبل استفحالها، ومن الأسباب الأخرى التي دفعت الرشيد لهذا الاختيار هو إعفاء خزينة مصر من المبلغ الضخم الذي كانت ترسله إلى إفريقية سنويا والذي بلغ مائة الف دينار وليس هذا فحسب، بل إرسال مبلغ سنوي مقطوعا قدره أربعون ألف دينار[10]، كخراج من ولاية إفريقية لخزانة الخلافة في بغداد.

كل ذلك كان يصب في مصلحتها وأسهم في استقرارها سياسيا واقتصاديا، وفي الوقت نفسه لمصلحة بني الأغلب التي تمثلت في تسلمه ولاية مهمة قابلة للاتساع على حساب الدول

المجاورة بدعم من الخلافة العباسية، وتمييزه عن سائر ولاة الخلافة بالامتيازات التي حصل عليها والمتمثلة في قدر كبير من حرية التصرف سواء في المجال الداخلي أو على الصعيد الخارجي في غرب العالم الإسلامي وفي استئناف حركة الفتوحات في جنوب غرب أوروبا، إضافة إلى ديمومة هذه الولاية في عقبه، وهو امتياز لم يمنح لأي والٍ من قبل.

أما لماذا تم اختيار ابن الأغلب بالذات؟ فهذا يعود لعوامل عدة أهمها لما عُرف عنه بأنه "ذو رأي ونجدة وبأس وحزم وعالم بالحروب ومكايدها"[11]، ثم لخبرته الطويلة بشؤون إفريقية خاصة، والمغرب عامة، ثم لولائه للخلافة العباسية؛ لأن أسرته كانت قد خدمت الخلافة منذ وقت مبكر.

ومنذ أن تولى إبراهيم حكم الولاية شرع في تنظيمها، والعمل على إعادة الهدوء والاستقرار إليها، فأخذا في إزالة أسباب تذمر الجند الذين كانوا سببا في إثارة المتاعب والمشاكل، كما أبدى نوعا من التسامح مع أتباع المذاهب سواء السنية منها أو غير السنية، مما كان له الأثر الطيب في النفوس، واهتمامه بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

الأغالبة والخلافة العباسة:

اتخذت علاقة الأغالبة بالخلافة العباسية طابعا مميزا لعله في الغالب يخدم اتجاهاتهم ومصالحهم، واتسمت بالودية فهي في جوهرها تتمثل في أنها ولاية عباسية، ولكنها تتمتع بقدر من الحكم الذاتي كما سبق وأن ذكرنا، وكان من مظاهر التبعية هي تولية كل أمير من أمرائها مهام منصبه بتقليد من الخليفة العباسي.

فقد أقر الخليفة الأمين حالما تولى الخلافة بعد وفاة أبيه الرشيد سنة 193هـ /809م إبراهيم بن الأغلب على بلاد إفريقية[12]، وبعد وفاة إبراهيم تولى ابنه أبو العباس عبدالله تسيير مقاليد الأمور في الولاية، فوصله إقرار الخليفة المأمون سنة 198هـ/ 813م بعد انتصاره على أخيه الأمين[13]، كذلك قام الخليفة المعتصم بتقليد أبي عقال سنة 223هـ / 838م ثم قلد ابنه أبا العباس محمد سنة 226 هـ /841 م، في حين قام الخليفة المعتمد بتقليد إبراهيم بن أحمد بعد وفاة أبي الغرانيق[14]، وكان عبدالله بن إبراهيم بن الأغلب قد خدم ثلاثة من الخلفاء وخطب لهم، وهم المعتمد، والمعتضد، والمكتفي[15]، وكان كل أمير يرسل مبلغ أربعين ألف دينارا سنويا إلى خزانة الخلافة اعتبرت كخراج.

والملاحظ أن معظم أمراء الأغالبة كانوا يتقلدون مراسم التنصيب من قبل الخلفاء العباسيين، لإضفاء صفة الشرعية لحكمهم بكونهم نوابا عن الخلافة في هذا الإقليم، ويستمدون سلطانهم من بغداد، حيث كانت رسل الخليفة تصل إليهم تباعا لمعرفة أحوال الإمارة، فكان الخليفة هارون الرشيد يكاتب أمير إفريقية باستمرار، كما كان يراسل القاضي ابن غانم[16]، لمكانته عنده، وإكراما له، فيذكر أبو العرب أنه إذ كتب كتاب لإبراهيم بن الأغلب يقول له فيه وأنا لا أفك كتابا حتى يكون إلي كتاب ابن غانم [17]، ويبدو أن الخليفة كان يستطلع من كتب القاضي ابن غانم إليه أوضاع إفريقية.

كما كان قضاة البلاد يعينون من دار الخلافة ، فضلا عن أن الأمير الأغلبي كان يتقيد بالخطوط العريضة للسياسة العامة للخلافة، فقد كانوا مثلا عدوا لأعدائها، ومسالما للمسالمين لها، وصديقا لأصدقائها، بل قام أمراء الأغالبة بإبعاد كل شخص يخشى شره إلى بغداد حيث كانت سجون الخلافة مليئة بالثوار المغاربة، وقد أشار ابن الآبار إلى العديد منهم، نذكر على سبيل المثال حمزة بن السبـــال والي طبنة، حيـــث قال" ووجه إلى الرشيد في القواد المتوثبين على الولاة بالقيروان"[18].

وعلى الرغم من التقارب والمصالح المشتركة بين الطرفين، فإن ذلك لم يرضِ بعض القطاعات من أهالي البلاد الذين ساءهم على ما يبدو تثبيت أركان هذه الإمارة التي تقر بالتبعية للعباسيين، لذلك ظهرت ردود فعل مناوئة تمثلت في نشوب بعض الثورات كثورات تونس وطرابلس وغيرها.

وتعد ثورة حمديس (خريش) من أهم هذه الثورات، وقد نشبت بتونس وقامت بإبطال شعار العباسيين وهو اللون الأسود فيذكر ابن الأثير ذلك بقوله "خرج عليه سنة ست وثمانين ومائة رجل من أبناء العرب بمدينة تونس اسمه حمديس، فنزع السواد"[19]، وثورة أهالي طرابلس بين سنة 189 – 196هـ التي أرسل إبراهيم ابنه أبو العباس عبدالله للقضاء عليها وتعيينه حاكما لطرابلس، وبقي على ذلك حتى وفاة أبيه وقيام أخيه زيادة الله بأخذ الولاية له[20]، وغيرها من الثورات المناوئة للعباسيين ونوابهم الأغالبة الذين عملوا جاهدا على قمعها واستطاعوا في كثير من الأحيان إخماد هذه الثورات بمساعدات من الخلفاء العباسيين.

وكان الأغالبة قد وقفوا إلى جانب الخليفة محمد الأمين في صراعه مع أخيه

عبدالله المأمون باعتباره الخليفة الشرعي، وعلى ذلك فقد أقر الخليفة الجديد ابن الأغلب واليا على إفريقية، كما سبق وإن ذكرنا ومما يشير إلى وقوف الأغالبة في صف الأمين ما ذكره ابن الأثير بقوله "لما دخل الأمين إلى مدينة المنصور، واستولى طاهر على أسواق الكرخ وغيرها كما تقدم، علم قواده وأصحابه أنهم ليس لهم فيها عدُو الحصر، وخافوا أن يظهر بها طاهر فأتاه، محمد بن حاتم الصقر، ومحمد بن الأغلب الإفريقي وغيرهما، فقالوا قد آلت حالتنا إلى ما ترى وقد رأينا رأيا نعرضه عليك، فعرضوا عليه محاولة الخروج والاجتهاد في اللحاق بالشام "[21].

ومع أن المأمون خرج منتصرا في هذا الصراع ضد أخيه، وأصبح الخليفة الشرعي للمسلمين إلا أنه تظاهر بصرف النظر عن المساس بالأغالبة، حفاظا على وحدة دولته وإعادتها لوضعها الطبيعي، ولعلمه أنه غير قادر على تنحيتهم من الحكم وخوفه من انفصالها عن حظيرة خلافته، بل قام حالما علم بموت إبراهيم، بالكتابة إلى ولده أبي العباس عبدالله بالولاية مكان أبيه[22].

ولم تشهد علاقاتهما أي توتر منذ ولاية إبراهيم بن الأغلب حتى سقوط الإمارة، فيما عدا الخلاف الذي بين الخليفة المأمون وزيادة الله الأول بسبب الكتاب الذي وجهه الخليفة إلى الأمير الأغلبي، يأمره فيه بالدعاء لعبد الله بن طاهر بن الحسين، والي مصر، فما كان من زيادة الله بعد قراءته لهذا الكتاب إلا الرد على الخليفة بقوله: "يأمرني فيه بالدعاء لعبد خزاعة هذا ما لا يكون أبدا" ثم مد يده إلى كيس بجانبه فيه ألف دينار، فدفعه للرسول وصرفه وفي الكيس دنانير من المضروبة بأسماء بني إدريس الظاهر ملكهم يومئذ بالمغرب، ورد برسالة مصحوبة بأبيات من الشعر[23]، لكن هذا الخلاف سرعان ما انتهى بالصلح حيث يشير لسان الدين الخطيب إلى ذلك بقوله " ففهم المأمون مغزاه، ولم يعاقبه بعد "[24] خاصة وهو يعلم أن بإمكان الأمير الأغلبي الانفصال عن الخلافة والانضمام إلى الأدارسة، لذلك شعر بأن بقاءهم في فلك الخلافة يستحق بعض التنازلات، حتى أن قيام الخلفاء العباسيين بتعيين أبنائهم ملاكا لأقاليم المغرب لم يطبق إلا شكليا خاصة في ظل وجود دول مستقلة [25].

وأسهمت الخلافة العباسية في كثير من الأحيان في إعادة الاستقرار لبلاد إفريقية ومساعدة الأغالبة في قمع الثورات المناوئة لهم، فكانت تمد الإمارة بالجند والأموال كلما

تطلب الأمر، فقد أرسلت الخلافة الأموال اللازمة عند ما ثارت القيروان ضد إبراهيم دون أن ننسى المساعدات التي كانت الخلافة تبعث بها أيام المحن والشدائد.

فقد بعث الخليفة المتوكل الأموال إلى إبراهيم بن أحمد بن محمد الأغلب (الثاني) لتوزيعها على المنكوبين من ضحايا الزلازل، الذي حدث سنة 245هـ فيذكر ابن الأثير ذلك بقوله "وفيها زلزلت المغرب فخرجت الحصون والمنازل والقناطر، ففرق المتوكل ثلاثمائة ألف درهم فيمن أصيب"[26]، وعندما تغلغل دعاة الفاطميين في المغرب أرسل الخليفة المعتضد بالله العباسي رجاله إلى إبراهيم بن أحمد للقبض على عبيد الله المهدي رأس الدعاة الفاطميين، وذلك في محاولة لإنقاذ إمارة الأغالبة من السقوط، كما أن الخليفة المقتدر أرسل لحاكم مصر سنة 296هـ/909م يأمره بإمداد زيادة الله الثالث (أبو مضر) بالعساكر والأموال لاسترداد القيروان[27].

وارتبطت سياسة الأغالبة الخارجية بالخلافة العباسية فقد سعوا إلى تحقيق أهدافهم التي رسموها بتوسيع نفوذهم في حوض البحر المتوسط، فكانت سياسة العداء بينهم وبين البيزنطيين جزءا من سياسة العباسيين أيضا أو متممة لها، لذا وجهوا اهتمامهم للسيطرة على المتوسط، وركزوا على جزيرة صقلية بعد تشجيع من الخلافة لهذا التوجه، إذ رأوا أن موقف الوالي الشرعي من هذه الحملة وهو الخليفة يجعلهم يستمدون قوتهم منه، خاصة فيما يتعلق بالناحية الروحية والمعنوية وتم فتح الجزيرة سنة 211 هـ /827م وأصبحت جزءا من ممتلكات الخلافة العباسية وإن كانت تحكم باسم الأغالبة وقد عمل الأمير الأغلبي زيادة الله الأول أثناء الفتح على دمج المغاربة بالمشارقة بإشراكهم في الحملة، وشغلهم بمحاربة الروم ليضع حدا للاضطرابات التي كانت تحدث بين السودان والمشارقة والمغاربة. كذلك شارك الأغالبة مشاركة فعالة في التقارب الذي حصل بين الخليفة هارون الرشيد وإمبراطور الفرنجة (شارلمان) سنة 184هـ/ 800م وساروا على نفس السياسة التي سنها هذا الخليفة أو بإيعاز منه. فقد حرص الأغالبة على أن تكون علاقاتهم مع الخلافة على المستوى الودي والاستجابة التامة لهم، وتلقي أوامرها وإجراءاتها في كتبهم، وكانوا في المقابل يستمدون نظمهم من النظم الإدارية العباسية، وطبقوها في إفريقية، واستفادوا من تجربتهم سواء أكان في المجال القضائي أم في المجال المالي أم في بقية المجالات.

علاقة الأغالبة مع مصر:

لم تقتصر علاقة الأغالبة مع بلدان المشرق على الخلافة العباسية فقط، وإنما ارتبطت بعلاقات مع بلاد مصر والشام من خلال حكامها، فشهدت علاقاتهما أثناء مرحلة تأسيس الإمارة الأغلبية تطورا ملحوظا واتسمت بالودية ويسودها التعاون والاحترام المتبادل، خاصة وأن كلا الطرفيين يدين بالولاء للخلافة، فكانت مصر تمد إفريقية بالمساعدات المالية في أوقات المحن والشدائد، بناء على أومر الخلافة العباسية، فيذكر البلاذري «أن رجلا من جند البلد يقال له عمران بن مجالد خالف ونقض فأنضم إليه جند الثغر وطلبوا أرزاقهم وحاصروا إبراهيم بالقيروان فلم يلبثوا أن أتاهم العراض والمعطون ومعهم مال من خراج مصر، فلما أعطوا تفرقوا»[28].

ولم تقتصر مساعدات مصر على الأموال فقط، بل قدمت الدعم العسكري، فعند ما ثارت قبائل طرابلس طلب الأمير الأغلبي المساعدة من حاكم مصر وهو يومئذ أحمد بن إسماعيل الذي بعث بجنود مصريين فلما قاموا بمهمتهم عادوا لمصر[29]، ورغم هذه المساعدات المالية والعسكرية التي قدمتها بلاد مصر للأغالبة، نجدهم قد رفضوا الانصياع والتبعية لمصر بعد ما طلب منهم الخليفة المأمون الدعاء لعبد الله بنطاه بن حسين، كما مرنا بنا.

وما أن تولى احمد بن طولون حكم مصر بعدما عهد إليه الخليفة المعتز بالله ذلك سنة254 هـ[30]، عمل على الاستقلال بهذا الأقليم ودخل في صراع ضد أحمد الموفق أخ الخليفة وحاول استمالة القواد في العراق، وأرباب المناصب حتى استطاع الاستقلال عن سلطان الخلافة[31]، ومنذ ذلك الحين بدأت العلاقات بين الأغالبة ومصر تأخذ مجرى أخر، حيث انتهت المرحلة الودية فلجأ كلا الطرفين إلى الكيد للآخر عن طريق إثارة الفتن والقلاقل على الحدود المشتركة بينهما، ويبدوا أن الأغالبة أردوا استرضاء الخلافة والوقوف في صفها ضد الانفصاليين بني طولون، لكسب ود العباسيين الذين لم يستغنوا يوما عنهم.

حاول بني طولون استمالة المفرج بن سالم الذي أعلن الثورة ضد أمير إفريقية الأغلبي، واستولى على أربعة وعشرين حصنا بمنطقة الأرض الكبيرة، وهي تقع غرب برقة بحوالي خمسة عشر يوما، وخاطب ود ابن طولون وطلب أن يكون تابعا له[32]، ورد الأغالبة على ذلك بإثارة القلاقل في برقة وهي يومها تتبع حكم بني طولون، فخرج أهلها على

إبراهيم بن محمد بن فروج الفرغاني وأخرجوه من البلد ، مما دفع حاكم مصر لأرسال حملة بقيادة أبي الأسود القطريف ويزبك الفرغاني لقمع وتأديب الثوار وإجبارهم على تقديم المعذرة، وترك العجلة، فإن أجابوه وإلا السيف[33].

ورغم محاولات الأغالبة السيطرة على برقة في عديد المرات، إلا أنهم لم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا، وبقي إقليم برقة عصيا عليهم، وظل تابعا لبني طولون ولم يدخل في نطاق دولة بني الأغلب على الإطلاق، حيث كانت منطقة (قصر أحمد) الحد الفاصل بين الدولتين[34]، والظاهر أن انصراف الأغالبة لتكملة فتح جزيرة صقلية وتجهيز الحملات في البحر المتوسط، قد حال دون وقوفهم ضد الطولونيين، الذين شغلوا أنفسهم بإخماد الحركات المعادية لهم في مصر، فضلا عن اهتمامهم بالاستحواذ على بلاد الشام وتوسيع مناطق نفوذهم، إذ يذكر ابن الأثير أنه " لما توفي أماجور حاكم دمشق وولى ابنه مكانه، تجهز أحمد بن طولون للسير للشام ليملكه، فكتب إلى ابن أماجو أن الخليفة أقطعه الشام فأجابه بالسمع والطاعة، فسار أحمد إلى دمشق فملكها ثم حمص وكذلك حلب وحماة "[35].

ولم يعدم بني طولون الوسيلة من أجل العمل للسيطرة على ممتلكات الأغالبة، فنجد العباس بن أحمد بن طولون يقرر التوجه غربا ويستقر ببرقة في محاولة منه للسيطرة على إفريقية، مستغلا غياب والده ببلاد الشام فيذكر ابن عذارى ذلك بقوله " أفرغ بيت المال واقترض مبلغا كبيرا من التجار حتى قيل، إن مبلغ ما حمل من المال ألف ألف دينار ومائتا ألف دينار"[36] وقام بإرسال كتاب إلى الأمير الأغلبي إبراهيم بن أحمد الأغلب يذكر فيه " أن كتاب المعتمد بالله أمير المؤمنين، قد قلدني إفريقية وأنه أمره بالخروج إليها ويأمره بإقامة الدعوة له"[37]، ويبدوا أن العباس قد نسى أو تناسى علاقة الأغالبة بالعباسيين، وأنهم يحكمون المنطقة باسمهم وهو الوضع نفسه بالنسبة لهم.

ورغم ذلك تقدم العباس باتجاه الغرب ووصل لمدينة لبدة، ودخل في صدام مسلح مع عامل (والي) طرابلس محمد بن قرهب الذي خرج لمواجهته، إلا أن العباس دخل طرابلس، ثم غدر بأهلها ونهبها واعتدى على نسائها ودفعهن للأسر، مما دفع الأهالي لطلب النجدة من ابن إلياس بن منصور الرستمي، الذي قدم مع أثنى عشر ألفا من أصحابه، وانضم إلي جيوش الأغالبة الذين استطاعوا الإيقاع بجيش الطولونيين وألحقوا به هزيمة نكرة وغنموا أموال جنده وأمتعتهم[38].

ولم يستطع الطولونيين أخذ الثأر بعد هزيمتهم في طرابلس، بسبب افتقارهم للموارد المالية اللازمة خاصة بعد المبالغ الضخمة التي خسروها في المواجهة الأولى، إضافة لعدم قدرتهم على ضرب دولتين في وقت واحد، والواقع أنّ أشتراك جيوش الأغالبة وبني رستم جنبا إلى جنب في حربهم ضد بني طولون لا يعني تغيّرا في العلاقات التي اتسمت بالعداء الواضح، وإنما لأن خطرهم كان يهدد بني الأغلب وبني رستم على السواء[39].

ولم تتحسن علاقات الأغالبة والطولونيين وبقيت العداوة سائدة بينهما، حيث أخذت كل منهما تعمل للقضاء على الأخرى ومحاولة الاستيلاء عليها ولم يحدث اتصال بينهم، ورغم ولائهما الشكلي للخلافة العباسية إلا أنها لم تتدخل في هذه الصراع لانشغالها في مشاكلها الداخلية، لكن الخليفة المكتفي بالله أمر بتوجيه حملة نحو مصر، بعدما حاول بني طولون الاستقلال التام بها وضم بلاد الشام لمتلكاته ونجحت الخلافة العباسية في إسقاط حكمه وإعادة مصر لحضيرة الخلافة، ومنذ ذلك الوقت عادت العلاقات الودية بين الأغالبة ومصر وكان لحكام مصر دور كبير في محاولة إنقاذ إفريقية من الخطر الفاطمي الشيعي عن طريق المساعدات المالية والعسكرية، ولكن هذه المحاولات لم تنجح نتيجة لاستفحال الخطر الفاطمي وسيطرته على أجزاء كبيرة من المنطقة آنذاك.

دور الأغالبة في تطور الحياة الاقتصادية والاجتماعية في المشرق والمغرب:

لقد تطورت الحياة الاقتصادية في منطقة إفريقية أيام الأغالبة وخاصة بعد سيطرتهم الكاملة على أغلب جزر البحر المتوسط، بعدما تسنى لهم فتح صقلية ومالطة وجنوب إيطاليا، وضرب معاقل البيزنطيين على شواطئه وأصبحوا يتحكمون في الطرق التجارية بين الشرق والغرب، وكان للاستقرار الذي شهدته المنطقة من أمن وسلام دور في نمو وازدهار الحياة الاقتصادية.

ولما كانت هذه الإمارة تدين بالولاء للخلافة العباسية، لذلك شهدت الحركة التجارية بين الطرفين ازدهارا منقطع النظير وساعد على ذلك سهولة الاتصال بينهما برا وبحرا، فكان الطريق ممهدا ومأمونا حيث كانت القوافل تخرج من بغداد وتمر بالأنبار والرقة وحران والرها وحلب وحمص ودمشق وطبرية والرملة والفسطاط والإسكندرية، ومنها لبرقة والقيروان[40].

وشهد التبادل التجاري بين إفريقية الأغلبية وبغداد نشاطا تجاريا مكثفا حيث تواجد

التجار المشارقة في بلاد المغرب الأدنى لنقل بضائع البلاد إلى بغداد، وشجع أمراء الأغالبة على التجارة مع المشرق، فكان إبراهيم بن الأغلب يرسل في كل سنه وأحيانا مرتين في السنة سفارة لبغداد بتجديد الولاء للخلافة ويكلف البعثة بمهمة أخرى وهي انتقاء نفائس ما يوجد في بغداد مما لا نظير له في المغرب[41]، وكان الأمير أحمد بن الأغلب جلب كمية كبيرة من خشب الساج من بغداد ليصنع منها عيدان الملاهي، فلما صدرت منه تلك الهفوة، ندم عليها وكفّر عنها بأن حول هذا الخشب المجلوب لصنع المنبر البديع العجيب في جامع القيروان سنة 266 هـ / 875 م[42].

وقد صدر الأغالبة إلى بغداد سواء عن طريق إرسال الهدايا للخلفاء، أو عن طريق التجار المغاربة الذين كانوا على اتصال وثيق مع تجار بغداد، صدروا أهم الموارد منها النسيج والبسط والأقمشة الفاخرة[43]، كما صدرت إفريقية زيت الزيتون حيث كانت مدن صفاقس والقيروان وقابس وطرابلس وكامل الساحل الأفريقي تشتهر بإنتاجه فيذكر اليعقوبي "من القيروان بلد يقال له الساحل، ليس بساحل بحر، كثير السواد من الزيتون والشجر والكروم "[44]، إضافة إلى تصديره بعض المواد والمنتجات الأوروبية مثل الجوز والمرجان والحديد والرصاص والزئبق.

وجلب الأغالبة الكثير من منتجات المشرق الإسلامي سواء التي كانت تأتي من بغداد، أو من بلاد فارس وغيرها من جهات الشرق، فقد استوردوا ماء الورد الذي اشتهرت به مدينة جور ونباتات الصين وإيران عن طريق بغداد والسلع الأخرى ومن أشهرها القاشاني (الخزف الجيد) والكاغد والبارود[45]إضافة لتجارة التمور التي شهدت رواجا كبيرا، خاصة وأن بلاد العراق وكرمان وشمال إفريقيا تعد من أكبر المراكز لإنتاج التمور، وكانت الطرق التجارية من إفريقية إلى بغداد مرورا بطرابلس ومصر تعج بالحركة باستمرار دون توقف حتى في أصعب الفترات خلال المشاكل الداخلية من ثورات وفتن وكوارث، وشهدت التجارة مع مصر نشاطا كبيراً، خاصة وأن الظروف الجغرافية كانت مهيأة إضافة إلى عدم وجود مشاكل سياسية بين الطرفين إلا فيما ندر، فكانت التجارة برية ولم تكن بحرية، مما دفع المؤرخ ارشيبالد لويس للقول " شهدت مصر في هذه الفترة كسادا اقتصاديا فلم تسهم في حركة التجارة العالمية بدور إيجابي واكتفت باستقبال التجار المغاربة"[46].

بالإضافة إلى اهتمام الأغالبة بالتجارة أولوا الزراعة والصناعة وبعض الحرف الأخرى

اهتماما لا يقل أهمية عما أولوه للتجارة، فشهدت هذه الجوانب تطورا ملحوظا بفضل الموقع الجغرافي للبلاد وكثرة المياه وخصوبة التربة ووفرة المواد الخام، إضافة إلى الهدوء النسبي والأمن والاستقرار الذي كان يعم البلاد في معظمها.

وشجع الأمراء الأغالبة الزراعة والصناعة والحرف الأخرى، فقاموا بجلب النباتات الجديدة من الشرق كالقطن وقصب السكر والأرز واستصلاح التربة وإقامة السدود وتطوير شبكة الري، مما أسهم في تطور الصناعة مثل الصناعات الخشبية وصناعة النسيج، فقد شهدت دور الطرز بإفريقية توفر أعداد كبيرة من الثياب التي كانت ترسل كهدايا للخلفاء العباسيين، حيث اشتهرت مدن إفريقية بالمنسوجات الرفيعة مثل قابس وسوسة التي تميزت بجودتها وبياضها الناصع[47]، دون أن ننسى التطور الكبير في الصناعات الجلدية والمعدنية وبعض الحرف الأخرى.

أما على الصعيد الاجتماعي فقد تأثرت مدن إفريقية ببعض المؤثرات[48] الشرقية وأصبحت مدينة القيروان عاصمة الأغالبة أشبه ما تكون بمدن بغداد والفسطاط، حيث بدأت مظاهر الحياة الاجتماعية الثرية تبرز بوضوح، خاصة في أوساط الفئات الاجتماعية المسيطرة سياسيا واقتصاديا، وكان هؤلاء الأمراء يقلدون خلفاء بني العباس في حياتهم الخاصة[49].

شكل العرب في إفريقية طبقة مميزة وتبوأوا مكانة مرموقة في المجتمع، وقد ازدادت أعدادهم منذ مطلع العصر العباسي حيث وفدوا مع الجيوش التي كان يبعث بها خلفاء بني العباس للقضاء على الفتن والثورات، ومما زاد في رفع شأن العرب فيها قدوم بعض الأمراء العباسيين للإقامة بإفريقية مثل عبد الوهاب بن الخليفة الواثق الذي قدم سنة 270 هـ إلى القيروان أيام إبراهيم بن الأغلب الثاني الذي قام بتزويجه بابنة أخيه، فولدت له محمد الحسين وهبة الله أبي الفضل وست بنات، وكذلك قدم محمد بن عبد العزيز بن عيسى الهاشمي، ابن خالة الخليفة أبي جعفر المنصور إلى القيروان أيضا سنة 225 هـ ومعه مسك يبيعه، وقد أولوهم الأغالبة الاهتمام والرعاية وكان للأغالبة دور في الاهتمام بالمؤسسات الاجتماعية والثقافية سواء المؤسسات الخيرية أو الصحية أو التعليمية وكانت لهذه المؤسسات الدور الرئيسي في تطور العلاقات الاجتماعية والثقافية بين الشرق والغرب.

الخلاصة:

إن الإمارة الأغلبية كان لها دور واضح وجلي في توطيد العلاقات بين المشرق والمغرب في شتى الجوانب، وأسهمت سياستها الرشيدة في احتوى كثير من المشاكل والفتن التي كادت أن تعجل بتفكك بلاد المغرب الإسلامي وانفصاله عن المشرق، وكان تمسكها بالشرعية المتمثلة في خلافة بني العباس وإعلانها الولاء والطاعة التامة لهم، سببا رئيسيا ومباشراً في جعلها تتبوأ مكانة مرموقة بين الدول آنذاك، وأصبحت الحاكم الشرعي في المنطقة والشريك الرئيسي في السلطة، ولم يتركز دورها في الجوانب السياسية فقط، بل تعدتها إلى الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

هوامش البحث ومراجعه:

1 - الرقيق، القيرواني، تاريخ المغرب وإفريقية، تحقيق المنجي الكعبي، تونس : رفيق السقطي، 1968، ص133.

2 - البلاذري، أبو الحسن، فتوح البلدان، (د.م) : دار مكتبة الهلال، 1983، ص230.

3 - البلاذري، المصدر السابق، ص230.

4 - الكتبي، محمد بن شاكر، فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، ج2، بيروت : دار الثقافة، 1973، ص34.

5 - اليعقوبي، احمد بن يعقوب، تاريخ اليعقوبي، ج2، بيروت : دار صادر، (د.ت)، ص 411،412.

6 - البلاذري، مصدر سبق ذكره، ص231.

7 - البلاذري، المصدر السابق، ص231.

8 - ينظر ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج1، بيروت : دار الثقافة، 1984، ص92، وعبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، ص355، محمد الطالبي، الدولة الأغلبية، بيروت : دار الغرب الإسلامي،1985، ص99 101-.

9 - سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ج2، الإسكندرية : منشأة المعارف، (د.ت)، ص422.

10 - ينظر ابن خلدون(عبد الرحمن ابو زيد)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ج4، قسم1، بيروت : دار الكتاب اللبناني، 1958، ص419، التاريخ، ج2، ص412.

11 - ابن عذراى، مصدر سبق ذكره، ج1، ص92.

12 - ابن عذراى، المصدر السابق، ج1، ص94.

13 - ابن عذراى، المصدر السابق، ج1، ص95، وينظر الباجي المسعودي، الخلاصة النقية في أمراء إفريقية، تونس : مطبعة بيكار وشركاءه، 1323هـ، ص26.

14 - محمود إسماعيل، الأغالبة سياستهم الخارجية، فاس : مكتبة وراقة الجامعة، (د.ت)، ص56.

15 - ابن وردان، تاريخ مملكة الأغالبة، تحقيق محمد زينهم عزب، القاهرة : مكتبة مدبولي، 1988، ص62.

16 - أبوالعرب، طبقات علماء إفريقية، تقديم على حسن الباجي، تونس : الدار التونسية للنشر،1968، ص116، ينظر الدباغ، معالم الأيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق إبراهيم شبوح، ط2، ج1، تونس : المكتبة العتيقة، 1993، ص302.

17 - أبو العرب، المصدر السابق، ص116.

18 - ابن الآبار، أبوعبدالله محمد، الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، ج1، (د.م) : الشركة العربية للنشر، 1963، ص108.

19 - أبن الأثير، عزالدين أبوالحسن، الكامل في التاريخ، ج6، بيروت : دار بيروت للنشر والطباعة ؛ دار صادر، 1965، ص156، الرقيق القيرواني، مصدر سبق ذكره، ص223.

20 - أبن الأثير، المصدر السابق،ج6، ص -192 269، أبن وردان، مصدر سبق ذكره، ص54.

21 - ينظر أبن الأثير، المصدر السابق، ج6، ص282، أبن خلدون، مصدر سبق ذكره، ج3، ص510.

22 - أبن الخطيب، لسان الدين: أعمال الأعلام، تحقيق أحمد مختار العبادي، محمد ابراهيم الكتاني، قسم 3، الدار البيضاء : دار الكتاب، 1964، ص 15،16.

23 - ينظر أبن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، الرباط : دار المنصور، 1972، ص26، أبن خلدون، مصدر سبق ذكره، ج4، قسم 3، ص422.

24 - أبن الخطيب، مصدر سبق ذكره، قسم 3، ص17.

25 - المصدر السابق، ج7، ص49، ص277.

26 - أبن الأثير، المصدر السابق، ج7، ص87.

27 - أبوالفداء، عماد الدين إسماعيل، المختصر في أخبار البشر، بيروت : الكتاب اللبناني، (د.ت)، ص169.

28 - ينظر البلاذري، مصدر سبق ذكره، ص231، أبن الآبار، مصدر سبق ذكره، ج1، ص104.

29 - أبن تغرى بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق محمد بن القازر، ج2، (د.م) : المؤسسة المصرية،1963، ص125.

30 - الطبري، مصدر سبق ذكره، ج9، ص381.

31 - أبن الأثير، مصدر سبق ذكره، ج7، ص305.

32 - أبن الأثير، المصدر السابق، ج7، ص521.

33 - البلوي، عبدالله بن محمد، سيرة أحمد بن طولون، تحقيق محمد كرد علي، القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية، ص70.

34 - ينظر الاصطخري، المسالك والممالك، بيروت : دار صادر، 1973، ص23، والقلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج5، القاهرة : المطبعة العربية الأميرية،(د.ت)، ص105.

35 - ينظر أبن الأثير، مصدر سبق ذكره، ج7، ص316، البلوي، مصدر سبق ذكره، ص252.

36 - أبن عذراى، مصدر سبق ذكره، ج1، ص 118.

37 - ينظر الكندي، أبو عمر بن يوسف، الولاة والقضاة، (د.م) : مؤسسة الكتب الثقافية، 1987، ص174، البلوي، مصدر سبق ذكره، ص252.

38 - ينظر ابن زكريا، يحيى بن أبي بكر، سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق إسماعيل العربي، الجزائر : الشركة الوطنية، 1979، ص12، والكندي، مصدر سبق ذكره، ص222.

39 - محمد الطالبي، مصدر سبق ذكره، ص383.

40 - ابن خرداذبة، أبو القاسم عبد الله، المسالك والممالك، بغداد : دار المثنى، 1986، ص 92.

41 - حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية في إفريقية، ج1، تونس : دار المنار، 1972، ص 169.

42 - الدباغ، عبد الرحمن بن محمد، معالم الأيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق إبراهيم شبوح، ط2، ج2، تونس : المكتبة العتيقة، 1993، ص147.

43 - أبن خلدون، المقدمة، بيروت : دار الكتب العلمية، (د.ت)، ص181.

44 - اليعقوبي، البلدان، بيروت : دار إحياء التراث العربي، 1988، ص107.

45 - عثمان الكعاك، علاقات تونس بإيران عبر العصور، تونس: التونسية للتوزيع، 1972، ص45.

46 - ارشيبالد لويس، القوة البحرية والتجارية في البحر المتوسط، ترجمة احمد عيسى، القاهرة : (د.ن)، (د.ت)، ص191.

47 - البكري، أبوعبيد الله عبد الله، المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليوتن، أندرى فيري، القاهرة : الدار العربية للكتاب، 1973، ص691.

48 - الحبيب الجنحاني، القيروان عبر ازدهار الحضارة الإسلامية، تونس : الدار التونسية للنشر، 1968، ص150.

49 - ابن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، تحقيق ليقي بروفنسال، باريس : دار المعارف، 1948، ص23.